الفصل الرابع

النظرية الإسلامية

في النقد الأدبي

صفحة بيضاء ٥٤

النظرية الإسلامية في النقد الأدبي

تخلف النقد عن مواكبة الإبداع:

سئلتُ ذات مرة من قبل القسم الأدبي في جريدة السياسي المصري عن أسباب تخلف النقد عن مواكبة الإبداع، وأثر ذلك على جودة الإنتاج الأدبي؟

وأجبتُ متسائلة:أي إبداع تقصدون؟ وأي نقد تقصدون؟

فنحن نعيش في فوضى فكرية وعقائدية، وأصبح أدبنا العربي في معظمه ماركسياً وجودياً، إباحياً وثنياً، فالأديب منا يأخذ بمذهب فكري أو فلسفي أو عقائدي، أو نظرية في علم النفس أو علم الاجتماع، أو الاقتصاد، أو السياسة، ويبني عليها أدبه دون أن تكون له مرجعية يرجع إليها يضبط بها ما يأخذه ليتلاءم مع بيئته، وليعبر عن هويته وعقيدته، فغدا الأدب العربي الموجود الآن في الساحة، يمثل ماركس وفردريك انجلز، وجان بول سارتر، وهيجل، ونيتشه وفرويد، وليفي شتراوس، ورولان بارت، والحلاج، والشلمغاني، وحمدان القرمطي، وغيرهم أكثر ممَّا يمثل أصحابه، لأنَّهم يرددون ما يقوله هؤلاء ويروجون لأفكارهم على شكل قصة أو رواية أو ما يسمى بشعر.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو:

أين هي هويتنا وشخصيتنا؟

لماذا كل هذا التمرد على كل ما لدينا من دين وفكر وحضارة ومبادئ وقيم ولغة وثقافة،ونأخذ بكل ما يأتي به الآخر؟

هل لو استقينا أدبنا من ديننا كما فعل آباؤنا وأجدادنا على مدى الأربعة عشر قرناً يعد تخلفاً؟

إنَّ الإغريق يعد أدبهم قمة الآداب الإنسانية، وأدبهم قائم على عقيدتهم المبنية على تعدد الآلهة، وصراع الإنسان مع الآلهة، ومع الكون، لماذا لم يعد هذا الأدب متخلفاً، والإغريق أمة متخلفة لأنَّ أدبها مبني على عقيدتها؟

لقد اعتبروا الإغريق أمة متحضرة، وذات حضارة عريقة، وأدبها يأتي في قمة الآداب الإنسانية.

والرومانسية القائمة على المسيحية لماذا لم تعد تخلفاً؟

لقد أخذ كثير من أدبائنا الكبار بالرومانسية وكذا أدب الحزب الشيوعي قام على الفكر الشيوعي، وللأسف أخذ به كبار أدبائنا في مقدمتهم الأستاذ نجيب محفوظ،لماذا لم يقل على هذا الأدب إنَّه أدب متخلف، بل على العكس من ذلك أطلقوا عليه أدب تقدمي، وعلى معتنقي الشيوعية أطلق عليهم تقدميون!!

إذن لماذا عندما نقول إنَّ أدبنا أدب الأمة الإسلامية ينبغي أن يستقى أصوله وينابيعه وقواعده من ديننا وعقيدتنا نعد متخلفين نريد تقييد الإبداع والتقهقر به إلى الوراء؟

مادمنا قد اتفقنا أنَّ لكل أمة أدباً يعبر عن دينها وعقيدتها ومبادئها وقيمها وآلامها وطموحاتها فعلام الاعتراض أن يكون لنا ـ نحن المسلمين ـ أدباً يعبر عن ديننا وعقيدتنا وقيمنا ومبادئنا؟

فالاعتراض في هذه الحالة في غير محله، وهو يبين لنا أنَّ مبعث الاعتراض هو الإسلام لذاته، وهو المقصود في هذا الاعتراض إبعاد كل ما هو إسلامي عن حياتنا لنستقبل الألفية الثالثة بلا إسلام، كما هو مخطط من قبل الآخر.

قد يقول قائل لماذا أدب إسلامي؟ هل يوجد أدب مسيحي، أو أدب يهودي؟

أقول نعم يوجد أدب مسيحي، ويوجد أدب يهودي، تعال واقرأ الأدب اليهودي تجد الأديب اليهودي لا يخرج عن إطار هويته اليهودية، ويكتب أدباً يوافق فكره وعقيدته، ويعبر عن أهداف بني دينه وآمالهم وطموحاتهم، وكذلك الأديب المسيحي فهو يعبر عن هويته وما يدور في مجتمعه،ولعل استجابة الأدباء المسيحيون لطلب "شاتو بريان" في كتابه العبقرية المسيحية أن يطبع أدبهم بالطابع المسيحي محتجاً على أخذ الأدباء مسيحي الديانة بالكلاسيكية القائمة على الوثنية الإغريقية.

أمَّا الأديب المسلم، فقد نبذ دينه وعقيدته، ومبادئ وقيم مجتمعه، وفقد هويته، وراح يردد ما يقول أصحاب المذاهب الفكرية والنظريات الفلسفية والاجتماعية والنفسية والاقتصادية والسياسية واللغوية كالببغاء غير مدرك أبعاد ما يكتبه على أمته، فأصبح أدبه لا يمثل الدين الذي يعتنقه، ولا الأمة التي ينتمي إليها، فكان لابد من تأصيل الإسلام في الأدب والفكر والنقد بمصطلح "الأدب الإسلامي" لتمييز هذا الأدب عن الفوضى الفكرية والعقائدية السائدة في الساحة فالمذاهب الفكرية والأدبية والفلسفية والاجتماعية

والنفسية التي ألزم معظم أدبائنا أنفسهم بها في كتاباتهم النثرية والشعرية قائمة على نظرتها للخالق جلَّ شأنه والإنسان والكون والحياة، وعلاقة الإنسان بخالقه، وبأخيه الإنسان، والكون والحياة سواءً أقرت بوجود الخالق أو أنكرت وجوده كالماركسية والوجودية، والرمزية، وغيرها، أو نظرت إلى الإنسان نظرة روحية محضة، أو مادية محضة، وكذا الحال في نظرتها إلى الحياة والكون.

فالإسلام حدَّد هذه العلاقات، ومادمنا مسلمين فلابد أن تكون مرجعيتنا إلى الإسلام في هذه الأمور المتعلقة بالعقيدة، لذا كان وجود الأدب الإسلامي، والنظرية الإسلامية في النقد الأدبي القائمة على التصور الإسلامي للخالق جلَّ شأنه، وإلى الإنسان والكون والحياة ضرورة ملحة لإعادة الهوية الإسلامية لأدبنا العربي بتنقيته ممَّا علق به من شوائب أفقدته هذه الهوية، ومسخت شخصيته الإسلامية.

ثُمَّ أنَّنا مقبلون على ألفية ثالثة وتواجهنا العولمة بكل تحدياتها من قبل الآخر، ولابد أن تكون لنا ثقافتنا النابعة من أصالتنا وديننا وقيمنا لنطرحها على العالم بكل ما تحمله من مبادئ وقيم سامية تفتقر إليها الإنسانية في عالم طغت عليه المادة والمصلحة والأنانية، وأن لا نكون مجرد متلقين لكل ما يطرحه علينا الآخر دون أن يكون لنا دور إيجابي وفعَّال ومؤثر.

لماذا نقبل على أنفسنا هذا الوضع المشين، ونقاوم ونحارب من يريد أن يعيد لنا ذاتنا وهويتنا؟

ثُمَّ لماذا كل هذا التخوف من الإسلام، ألم يعط الإسلام للإنسانية أزهى وأرقى حضارة شهدتها البشرية منذ بدء الخليقة حتى الآن؟

هل يعتبر السائد في الحضارة الغربية من عري وشذوذ وإباحية، وإغراق في الشهوات، وإلحاد تحرر وحضارة؟

فلن يكون إبداع إلاَّ بالعودة إلى جذورنا وأصالتنا، وما ينطبق على الأدب ينطبق أيضاً على النقد لأنَّ النقد الأدبي يسير في ذات الطريق التي سلكها الأدب.

نظرية التصور الإسلامي للنقد الأدبي:

لقد انبثقت هذه النظرية من التصور الإسلامي، بحيث يعرض النص الأدبي على هذا التصور لمعرفة مدى موافقته له ومدى مخالفته إن كان مخالفاً، وعلى الناقد الأدبي الذي يطبق هذا المنهج أن يكون مؤمناً به، ومقتنعاً بأهميته، وأن يكون ذا ثقافة إسلامية واعية وملماً تمام الإلمام بالتصور الإسلامي لله عزّ وجل وللإنسان والكون والحياة، والعلاقات الإنسانية، وكل شؤون الإنسان والحياتين الدنيوية والأخروية ذاك الإلمام الذي يجعله يمتلك تلك الحاسة التي تمكنه من وضع يده على المواطن التي يخالف فيها النص الأدبي التصور الإسلامي، والمواطن التي يوافقه فيها، أيضاً ينبغي أن يكون ملماً بالمذاهب الأدبية والفكرية وموقفها من الله سبحانه وتعالى ومن الإنسان والكون والحياة ليعرف مدى تأثر كاتب النص الأدبي بهذه المذاهب، وأن ما يكتبه لا يمثل بالضرورة حقيقة ما يعتقده، وإنما فصل بين دينه وفكره متبعاً في ذلك مذهب "الفن للفن" الذي يدعو إلى فصل الدين عن الفكر،وعلى الناقد الإسلامي أن يكون ملماً بالأشكال الفنية وأساليبها، ومتمكنا من اللغة العربية وأسرارها ليدرك مواطن الجمال في النص الأدبي الذي بين يديه. والهدف من النظرية الإسلامية في النقد الأدبي تنقية الأدب العربي مما علق

به من شوائب الإباحية والإلحاد، وتخليصه من التبعية الفكرية وإعادة إليه الهوية الإسلامية، وتقويم جميع الأعمال الأدبية في عالمنا الإسلامي من المنظور الإسلامي.

هذا وقد تصدت هذه النظرية للمذاهب الغربية المتسللة إلى الأدب العربي، واستطاعت أن تكون رأياً عاماً تجاه هذه المذاهب مما أدى إلى انحسارها نوعاً ما من أدبنا، وتراجع البعض عن تبنيها، وأصبح هناك وعي لدى القارئ استطاع به التمييز بين الطيب والخبيث من الأدب ومدى موافقته للتصور الإسلامي أو بعده عنه، وبالتالي أصبح المستغربون يعملون حساباً لهذه الدراسات الأدبية والنقدية التي تصدت للتيارات الغربية الفكرية البعيدة عن الإسلام.وقد كنتُ من الذين نظَّروا لهذه النظرية، وأول من طبقها على كتابات كبار الأدباء والكتاب، ولعل دراستي " فكر توفيق الحكيم تحت مجهر التصور الإسلامي "هي أول دراسة تطبيقية لهذه النظرية، وقد قال عنها فضيلة الشيخ علي الطنطاوي ـ رحمه الله ـ في برنامجه التلفازي "نور وهداية " (إنَّها أدق دراسة نقدية قرأها، وأنَّ تطبيق المنهج الإسلامي في الدراسات النقدية ينبغي أن يطبق على الكبير كما يطبق على الصغير".

وقد لازمت دراسة "فكر توفيق الحكيم تحت مجهر التصور الإسلامي هذه الدراسة التي نحن بصددها، وهي " التيَّار الإسلامي في شعر عبدالرحمن العشماوي "وهي تشمل الجانب الإيجابي في الشعر والأدب، إذ كتبتهما في فترة زمنية واحدة فكان أحدهما يمثل الجانب السلبي، والآخر يمثل الجانب الإيجابي.

هذا وقد وقفت النظرية الإسلامية بحزم وبجرأة أمام تيار الحداثة، وقد فنَّدتُ بها آراء وأقاويل الحداثيين مما أدى إلى اجتماع بعض رواد الحداثة للبحث عن بديل للحداثة، ونادوا بمذهب "الواقعية السحرية "،وخلعوا عليها مسمى "الواقعية التخييلية" لما لكلمة "سحرية" من دلالة على السحر الذي يحرمه الإسلام لأن أبطال قصص هذا التيار هم من السحرة، وهو مذهب نشأ في أمريكا اللاتينية.

هذا وقد أُوقفتْ الحملة في الدعوة إلى هذا التيار الجديد بعدما تصديتُ له في مجلة" إقرأ " في البحث الذي نشرت بعض حلقاته تحت عنوان "الواقعية السحرية تحت مجهر التصور الإسلامي"؛ إذ شعر دعاته آنذاك أن هناك تقويماً إسلامياً لهذا المذهب الأدبي،كما تصديتُ إلى مخاطر النقد الثقافي للغة العربية وبينتُ أثر ذلك على الدين لأن اللغة العربية لغة توقيفية – أي من عند الله _ وهي لغة القرآن الكريم، أي مساس بها فيه إفساد للدين.

وبعد فهذا بعض الدور الذي قامت به النظرية الإسلامية في النقد الأدبي فهي بمثابة العين الساهرة التي ترصد وتفند ما يقال أو ينشر مناف للإسلام، وكل مذهب فكري بعيد عن التصور الإسلامي،وهي واضحة بسيطة خالية من أي تعقيد،فقد طبقتُها على كثير من الدراسات النقدية ولم أجد غموضاً أو إشكالاً في التطبيق لأن التصور الإسلامي منهج واضح متكامل لا لبس فيه ولا غموض، ولا تنافر ولا تناقض، لأنه منهج رباني.